الاستشراق البريطاني ومساهماته في اللغة العربية وآدابها، مع التخصص في المعاجم ودوائر المعارف: دراسة وصفية

يوسف علي أ.ن
باحث الدكتوراه ، جامعة مولانا آزاد الوطنية الأردية بحيدراباد

المقدمة

قد مهّدت بعض الاتجاهات العلمية والأدبية دربا لتطور المجالات المختلفة التي تشجع أذهان طالبي العلم في العالم. يعد مفهوم «الاستشراق» منها نقطة التحوّل التي تبحث حول الطاولات العلمية ايجابية وسلبية حسب أفكار الذين يستمرون وراء هذا البحث. اليوم يبحث مفهوم الاستشراق والمستشرقون بعد حصوله على المنهج الخاص في فلسفته وسياسته والفعاليات التي تجري تحته.

تسجّل أسماء المستشرقين وأعمالهم في تاريخ أهم المساهمات في مجال اللغة العربية وآدابها. ومن المعروف جدا، أن كثيرا من العباقرة منهم قد بذلو قصارى جهودهم في تعلم هذه اللغة وتوسيعها بكتاباتهم القيمة. قد عرّفت هذه الكلمة «الإستشراق» من قبل كثير من المفكرين والأدباء في طرق مختلفة، يقول أحمد حسن الزيات: «يراد بالاستشراق اليوم: دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره، ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لصلتها بالعلم، إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغمورا بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدنية والعلم، كان الغرب من بحره إلى محيطه يعمه في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجموح»[١]

لا تقتصر مساهمات المستشرقين في مجال اللغة العربية، على واحد فقط، بل تمتد هذه إلى المجالات المختلفة. ومنها، الكتب والمؤلفات، والمقالات، وتحقيق المؤلفات النثرية والشعرية، وإنشاء المجلات والدوريات والحوليات، وتأسيس كراسي اللغة العربية والمعاهد الأخرى. وكذلك المستشرقون من الدول المختلفة قد درسوا اللغة العربية وقاموا بالتأليف في ألسنتهم عن هذه اللغة وآدابها. ومنهم المستشرقون الإيطاليون، والفرنسيون، والأمريكيون، والألمانيون وغيرهم. وفي هذا الصدد، هذه الدراسة تركز على المستشرقين البريطانيين ومساهماتهم في مجال المعاجم والقواميس.

دور المعاجم والقواميس في مجال اللغة العربية

إن المعاجم والقواميس قد لعبت دورا مهما في تطوير أفكار الباحثين في وصول إلى آفاق اللغة العربية. تساعد المعاجم- مستودع مادة كل المعاجم وشارح كلماتها وبيان سياق الكلمات وأصولها- الباحثين للوصول إلى حكمة حقيقة للكلمات والمصطلحات التي تساعدهم في بحثهم المختلفة. ومن المهم أن العلماء العرب اعتنوا بصناعة المعاجم ونشرها وتحقيقها

بحيث أنّهم قد ألّفوا كثيرا من المعاجم التي في موضوعات مختلفة.

المعاجم من قبل المستشرقين البريطانيين

قد اهتم غير العرب بالتأليف المعجمي، خاصة المستشرقون الذين اعتنوا بدراسة اللغة العربية وقاموا بالفعاليات المختلفة فيها. يريد الكاتب هنا، أن يبحث مساهمات المستشرقين البريطانيين في صناعة المعاجم والتأليف فيها. ومن المعروف جدا، أن أدوار المستشرقين البريطانيين في مجال تأليف المعاجم ظاهر ومناهجها وخصوصياتها مشهورة في أقلام النقاد. نفهم الخصوصيات والمناهج لمعاجم المستشرقين البريطانيين من بعض المعاجم التي تلي تفسيرها. ومن أهم المعاجم ودوائر المعارف التي ترأس المستشرقون البريطانيون بتأليفها:

«دائرة المعارف الإسلامية» لمجموعة من المستشرقين

هي موسوعة أكاديمية بارزة تتناول الموضوعات المختلفة التي تتعلق بالحضارة الإسلامية. وتشتمل قائمة دائرة المعارف على الدين واللغة والبلاد العربية والإسلامية وشعوبها والأحداث التاريخة وأحوالها والأمور الإقتصادية والمسائل الفكرية وغيرها. وعمل عدد من كبار المستشرقين الدول المختلفة في الغرب لكتابة الموضوعات في هذه الدائرة وإخراجها. ومنهم بعض المستشرقين البريطانيين الذين ساهموا في كتابة دائرة المعارف وتحقيقها. وهم رينولد نيكولسون ، ودافيد صموئيل مارجليوت، و أ.ج آربري، ووتوماس آرنولد ، وهاملتون جب.

قد أصدرت دائرة المعارفة الإسلامية في ثلاث مرات، أولها كان في قترة بين ١٩١٣-١٩٣٤م بنسخة اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية في مطبعة بريل(Brill). وأصدرت الطبعة الثانية بين ١٩٥٤-٢٠٠٥م بإضافة بعض الموضوعات إليها وإعادة بعض الأجزاء من الاصدار الأول. أما الاصدار الثالث كان بدأ منذ عام ٢٠٠٧م بأن تركّز على اضافة المقالات الجديدة في النسخة الإلكترونية.

أما أسلوب هذه الموسوعة وقيمتها، هي تسهّل للقراء والباحثين بحثهم وأفكارهم، بحيث أنهم يستطيعون أن يعتمدوا عليه في شكل المعاجم العربية المشهورة بدقة. بعدما أكب المستشرقون على دراسة المجالات المهمة في الحضارة الإسلامية قدموا خلاصة بحثهم في هذه الموسوعة التي يتبعون فبها منهج القواميس والمعاجم. يقول أحمد سمايلوقتش في كتابه عن قيمة هذه الدائرة:» ترجع قيمة دائرة المعارف الإسلامية إلى شموليتها أكثر منها إلى موضوعتها، إذ جمع أصحابها أغزر مادة كان يمكن حينئذ جمعها حول موضوع واحد في مكان واحد، وأحالوا الباحث فيها إلى أكبر قدر ممكن من أهم المراجع»[٢]

ترجمت هذه الموسوعة إلى العربية والتركية والأردية في عام ١٩٥٣م. وقامت بترجمتها إلى العربية، مجموعة من المترجمين منهم محمد ثابت الفندي، وإبراهيم زكي خورشيد، وأحمد الشنتاوي، وعبد الحميد يونس وأصدرت هذه بعنوان «دائرة المعارف الإسلامية». واعتمد المترجمون في الترجمة العربية على الأصلين الإنجليزي والفرنسي. يؤكد مترجموها أن هذا العمل سبب حقيقي ليحصل الطلاب في العالم الحاضر على الفرص ليتعلق بتراث الحضارة الإسلامية. نجد هذه الثقة من قول المترجمين هذا :» فنحن نؤمن بأنك ستجد في هذه الدائرة التراث الإسلامي مرتبط الحلقات متماسك الأطراف، وأنك ستعتمد عليها في مراجعة هذا التراث العظيم»[٣].

«مد القاموس» لإدوارد لين (Lane,Ed.w)

هذا القاموس لإدوارد لين،المستشرق البريطاني الذي عاش بين ١٨٠١ ١٨٧٦ وقصد مصر سنة ١٨٢٥بعدما نبغ في الرياضات صغيرا وأكب على دراسة حضارة قدماء المصريين. هذا المعجم عربي-انجليزي يتضمن الكلمات الكلاسيكية ومشتقاتها واستعمالاتها. هذا المعجم نسّق على النسق الأوربي في ثمانية أجزاء ، واستغرق وقت المؤلف ثلاثين سنة لإكمال هذا المعجم. يقول اليعقوبي عن هذا المعجم: «» ما زال من أجود المعاجم المتداولة ، أمثال معجم كازيمير سكى بالعربية والفرنسية، ومعجم بادجر بالإنجليزية والعربية،ومعجم دوزى بالعربية والفرنسية»[٤] .

يعدّ هذا المعجم جمعا في تاريخ المعاجم العربية المفردات من أمهات كتب الأدب، مما لم يرد في المعاجم القديمة أومعجمى جوليوس وفرايتج، ومنتخبات من القرآن الكريم، أخيرا أصبح هذا المعجم أصلا تعتمد عليها معظم المعاجم العربية الأحدث عهدا باللغات الأوربية.ألّف إدوارلين هذا المعجم اتباعا للمؤلفين العرب الذين تبهّروا في صناعة المعاجم، وبذا نال معجمه «مد القاموس « شهرة كاملة عند المستشرقين.

مبادئ إدوارد لين في صناعة معجمه

نال معجم «مد القاموس» شهرته بسبب اتخاذ المؤلف المنهج الخاص له في صناعته، ومنها:

الأول: اعتمد لين على « تاج العروس» لتأليف هذا المعجم أساسا، بحيث استقى منه أغلب محتوياته، وكذلك هو اعتمد على «لسان العرب» في صناعة هذا المعجم، وإذا قابل أي شيئ بين المصدرين هو يعتمد على لسان العرب للوصول إلى النتيجة النهائية في صناعة المعجم[٥] .

والثاني: لم يختصر المؤلف في اعتماد المعجمين الذين ذكر عنهما هنا، بل هو كان اعتمد على عشرة معاجم تقريبا من المعاجم العربية القديمة، وبذا أصبح معجم «مد القاموس» مصدرا مهمّا في مجال المعاجم عند العرب المستشرقين.

«معجم فارسي-عربي-انجليزي» جون ريتشاردسون (John Richardson)

يعتبر هذا المعجم أول معجم فارسي عربي إنجليزي، الذي ظهر بين ١٧٧٨م و١٧٨٠ تحت تحرير المستشرق البريطاني والعالم اللغوي، جون ريتشاردسون. إن عمله الأساسي في قواعد اللغة الفارسية ، والذي كتب بالتعاون مع السير ويليام جونز ، جديرًا بالملاحظة من بين الأعمال المبكرة حول هذا الموضوع ؛ ويظل مهمًا في سياق ذلك الأساس اللغوي الذي من خلاله تتطور جميع الدراسات النحوية اللاحقة.

وفي عام ١٨٠٦ ، قام بتوسيع القاموس بما يقرب من ٢٠٠٠٠ كلمة ، وتم تكبير هذه الطبعة مرة أخرى بعدة آلاف من الكلمات العربية ، وتم اعتباره سابقًا غير مستخدم في بلاد فارس ، «بالإضافة إلى مجموعة متنوعة من التلميحات المرتبطة بالجغرافيا والسيرة والتاريخ. وبالإضافة إلى ذلك ، وتم تمكين المحرر من إثراء العمل الحالي بإضافة أكثر من ثمانية وثلاثين ألف كلمة عربية وفارسية . ومع ذلك ، اضطر فرانسيس جونسون إلى كبح جماح نفسه في جهوده لإنتاج القاموس الأكثر اكتمالا. وتم اختيار هذا العمل من قبل العلماء باعتباره مهمًا ثقافيًا ، بأن يكون هذا جزء من القاعدة المعرفية للحضارة.

«المعجم العربي» وليم بدويل (Bedwell,W)

ظهر «المعجم العربي» بيد المستشرق المشهور ، والذي يعرف أبا للغغة العربية عند المستشرقين. وهو كاهن وباحثً إنجليزي متخصص في اللغة العربية واللغات الشرقية الأخرى وكذلك في الرياضيات.

هذا المعجم يتكون من سبعة أجزاء، وبدأ المؤلف تصنيفه قبل عام ١٦١٠.لكن لم يستطع المؤلف أن ينشره ، إلا أن كاستل اعتمد عليه لتصنيف قاموسه « مجمل معجم معجم اللغات السامية».

قد وضع وليم بدويل فهرسا للقرآن باللغة التركية في شكل معجم مع البيان والتفسير، وقد طبع هذا في ليدن سنة ١٦١٥م. ووصل إلى تحقيق فهرسة كاملة في القرن التاسع عشر على يد العالم الألماني « غوستاف فلوجل» الذي ألّف أول معجم مفهرس عربي للقرآن، هذه سمّي ب»نجوم الفرقان في أطراف القرآن» وقد طبع في ليبزج سنة ١٨٤٢م[٦].

«معجم الذخيرة العلمية» جورج برسى بادجر(George Badger)

ألف المستشرق البريطاني، جورج برسى بادجر هذا المعجم المشهور باللغتين الإنجليزية والعربية في ١٢٤٤ صفحة. خرج المستشرق البارز مرشدا دينيا وصاحبا للوفد إلى بعض الأماكن الشرقية والجزيرة العربية ومالطة وغيرها. يعد هذا المعجم من أوسع المعاجم وأجلها في التراث العربي. قد بذل الأديب السوري رزق الله حسون جهده مع جورج في هذا العمل حتى أنه كتب مقدمته بالعربية في لندن سنة ١٨٨١م. هذا يشتمل على المصطلحات العلمية والفنية وأصدر في ١يناير ١٩٨٨م تحت الناشر مكتبة لبنان ناشرون.

يقول أصحاب الموقع المشهور للكتب «مكتبة النور» في وصف هذا المعجم : «هذا عمل ضخم لا يستغني عنه الدارس والباحث في اللغتين العربية والإنكليزية، إذ يعطي مع كل كلمة استعمالاتها الخاصة في مصطلحات إنكليزية وما يقابلها من مصطلحات عربية»[٧].

يشير هذا الوصف إلى كيفية هذا المعجم، التي تساعد أي دارس أو باحث لحصول على المصطلحات الجديدة في الإنجليزية ومعانيها أو وما يقابلها في العربية. ومن خصوصيات هذا المعجم ، أنه ألف اعتمادا على أخذ الاستشهادات من الآيات وبليغ الكلم نثرا وشعرا. لقد بذل المؤلف كثيرا من جهده وراء هذا العمل بحيث أنه استغرق أربيعن عاما لاصداره وقضى تسعة منها في مراجعة العمل ووضعه في شكله النهائي.

أسلوبه

أما أسلوب المعجم، أنه يبدأ المصطلحات في الإنجليزية بوضع الحرف الأول من الأبجدية الإنجليزية ويجيئ بما يقابلها في العربية، ومنها نوذجا:

إختصر - أوجز :Abrevitae

Abjure : أنكر-رفض

فسخ : Abrogation

كما يعرف من هذا الأسلوب، أن المؤلف وضع المصطلحات بحسب الأولية في الأبجدية الإنجليزية. وكذلك قد حاول المؤلف أن يضع المعاني اللائقة للمصطلحات الانجليزية.

«قواعد اللغة العربية» دنكان فوربز (Duncan Forbes)

يعد كتاب «قواعد اللغة العربية» للمستشرق البريطاني دنكان فوربز، من أهم المعاجم للغة العربية. هو مستشرق بريطاني ولغوي وعمل وأستاذا اللغات الشرقية في كلية «كينجز» في لندن، كما عمل بالمتحف البريطاني في فهرسة مجموعة المخطوطات الفارسية.

أصدر هذا المعجم في ٣٤٤ صفحة سنة ١٨٧٤م. ليس هذا مثل المعاجم الأخرى التي تقدم الكلمات أو المصطلحات في العربية أو الإنجليزية، بل يحاول دنكان أن يقدم القواعد في اللغة العربية في طريقة مختلفة في أسلوب معجم. وبذا يشير

المؤلف إلى هدف هذا المعجم بأن يقول جملة في غلاف الكتاب مثل هذا « هذا قواعد اللغة العربية لاستخدام الشباب الذين يستعدون للخدمة المدنية في الهند الشرقية مخصصا بشكل أكبر، وأيضا لاستخدام الطلاب الذين يقوم بالتعليم الذاتي بشكل عام»[٨].

يتضح في هذا القول الأساسي عن هذا الكتاب، أنه ليس مثل المعاجم كاملا، بل أعد هذا الكتاب في شكل معجم أن يقدم قواعد اللغة العربية وأصولها للطلاب بحيث أن بعضهم يستخدمونه لأهدافهم الخاصة ، ويستخدمه الطلاب الآخرون لتعلم قواعد العربية بشكل عام.

إن مؤلف هذا المعجم يبين مناسبة تأليفه رغم أنه لا يجيئ بمطالبات بحيث أن هذا العمل هو الأفضل في هذا المجال. بل يعبر المؤلف عن ثقته في نجاح هذا العمل بين القراء حينما يقارن هذا العمل بالأعمال الأخرى في المجال نفسه. هو يقول في أول جزء لمقدمة هذا المعجم: « وفي الوقت الحاضر، يوجد ما لا يقل عن نصف مائة عمل في قواعد اللغة العربية ، ألفت بشكل رئيسي باللغات اللاتينية أو الفرنسية أو الألمانية، إذن ، ربما يسأل القارئ بشكل غير معقول - لماذا نضيف واحدًا آخر إلى هذ الرقم؟ جوابي على هذا السؤال هو أنني أعتقد أن الموضوع سيتعرض لطريقة علاج أكثر وضوحًا ومنهجية بكثير مما التقيت به حتى الآن»[٩].

أسلوبه

رتّب المؤلف محتويات الكتاب في تسعة أقسام من حيث اختلاف استخدام قواعد العربية ، منها: أولها الحروف والرموز المستخدمة في الكتابة، والثاني: المادة والعدد والصفات والضمائر، والثالث: الفعل، والرابع: الأفعال الضعيفة أو الناقصة، والخامس: الجسيمات التي لا تمحى، والسادس: اشتقاق وتشكيل الأسماء، والسابع: بناء الجملة والموضوعات والصفات والضمائر، والثامن: بناء الأفعال والجسيمات وآخرها : العروض. بعدما رتّب المؤلف هذا العمل في هذه الأقسام ، يجيئ بالتعاريف والتفاصيل في الإنجليزية بحيث أنه يبيّن في لغة سهلة. حينما يفحص هذا المعجم في قواعد العربية، يفهم الباحث أن هذا المعجم ليس مثل المعاجم الأخرى بأن يقدم المصطلحات في العربية أو الإنجليزية، بل يركز المؤلف في تقديم قواعد العربية الأصلية في الأقسام المختلفة.

«سلك البيان في مناقب القرآن» جون بنريس (John penrice)

جون بنريس مستشرق بريطاني اشتهر بعمله «سلك البيان في مناقب القرآن» في عالم الاستشراق والمجال العربي. وهو كان جنديا بريطانيا ومصورا مشهورا بحيث أن بنريس عرض أنماطًا من كالوتيبس (Calotypes) ومناظر معمارية ومناظر طبيعية من الورق المشمع في معرضي ١٨٥٤ و ١٨٥٥ لمجتمع التصوير الفوتوغرافي في لندن، وفي معرض معهد لندن للتصوير الفوتوغرافي عام ١٨٥٥م)[١٠](.

إن هذا العمل «سلك البيان في مناقب القرآن» من أهم آثار جون بنريس بأسلوبه المميز الذي يركز على المصطلحات في القرآن. قام بنريس بهذا العمل في العربية والإنجليزية على حروف المعجم في لندن ١٨٧٣م. نشرت مكتبة لبنان ببيروت هذا العمل في ١٦٩ صفحات في جزء واحد. يبين المؤلف المناسبة لتأليف مثل هذا العمل في مقدمته نفسها. ومن الواجب لكل مسلم أن يقرأ القرآن وأن يفهمه. لكن بالنسبة إلى من لا يعرفون اللغة العربية، أنهم لا يستطيعون أن يقرأ القرءان بأن يفهموا كل معانيه مصطلحاته في شكله المستقيم. لأن دراسة الأدب العربي وتقديره يتطلب إلماما تاما بالقرآن، بل تذكر كثير

من التعاليم والإقتباسات من صفحات القرآن في معظم الكتب للكتاب المسلمين. ويسمح هذا الدليل الكلاسيكي لواحد من أكثر الكتب قراءة في العالم للجميع ، إما أنهم المسلمون أوغير المسلمين على حد سواء ، بفهم القرآن - حتى أولئك الذين ليس لديهم معرفة مسبقة باللغة العربية .

خاتمة البحث

يعد التأليف المعجمي من أهم المساهمات التي قدّمها المستشرقون في مجال اللغة العربية. عندما يبحث الكاتب عن أهم المعاجم التي ألفها المستشرقون البريطانيون يجد أن مساهمات المستشرقين في هذا المجال قد لعبت دورا مهما بحيث أنها نالت الشهرة في الدول العربية مثل الدول الأوربية. وكذلك كان لا يعلم العالم العربي عن مساهمات المستشرقين في المجال المعجمي واضحا في البداية نفسها، ثم بدأ أن تنشر أعمالهم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

مستشرقين البريطانيين حسب مناسبات المعاجم ومضمونها. قد تبنى المؤلفون الأساليب المختلفة والطرق المتنوعة التي تسبّب لطبق الحاجات للقراء، وبذا أن لكل معجم بعض السمات المميزة بحيث أنها راجعت إلى اختلاف الألسنة وتعدد الثقافات التي تخرجت منها تلك المعاجم. يختلف هذا الأسلوب من أساليب المعاجم التي ألفها المؤلفون العرب من لغتهم وثقافتهم التي تتعلق باللغة العربية الخالصة.

ومن الأمر المهم في التأليف المعجمي للمستشرقين، أنهم عندما أعدوا المعاجم، قد حاولوا أن يرتّبوا موادها ترتيبا ألفبائيا بشكل منهجي. وكذلك يراجع اعتماد بعض المعاجم إلى الكتب الأدبية ، ويخرج أغلبها عن الحدود التاريخية التي وضعها النحاة لأحد المادة اللغوية. وجدير بالذكر هنا ، أن العلماء والقراء قد استطاعوا أن يستفيدوا من هذه المعاجم من قبل المستشرقين بحيث أن أغلب أجزاءها وتفاصيلها قد قدّمت في اللغة العربية والإنجليزية ويمهّد هذا المنهج دربا للراغبين في العربية إلى آفاقها وتطورها.

الهوامش

١) زيات،أحمد حسن ، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، لبنان، ج: ٢،، ١٩٩٣، ص: ٥١٢

٢) سمايلوقتش، الدكتور أحمد ، فلسفة الاستشراق وأثرها في الادب العربي المعاصر، دار الفكر العربي بمصر، ١٩٩٨، ص:٥٦٨

٣) الفندي،محمد ثابت ، و خورشيد إبراهيم زكي ، و الشنتاوي،أحمد ، و يونس عبد الحميد ، الترجمة العربية لـ دائرة المعارف الإسلايمة ، ج: ١، ١٩٣٣، ص:١

٤) العقيقي، نجيب، المستشرقون، دار المعارف، مصر ج: ٢، ١٩٦٤، ص: ٤٨١

٥) تاج العروس : هو معجم عربي –عربي ألفه العالم الهندي العلامة مرتضي الزبيدي شرحا لمعجم القاموس المحيط الذي كتبه العالم اليمني الفيروزابادي

٦) العقيقي، نجيب، المستشرقون، دار المعارف، مصر ج: ٢، ١٩٦٤، ص: ٤٦٤

٧) موقع مكتبة النور: https://www.noor-book.com

٨) فوربز دنكان ، قواعد اللغة العربية، ١٨٦٤، ص: ١

٩(المصدر السابق، ص: ٤

١٠) كالوتيبس: هي عملية تصوير مبكرة تم فيها صنع السلبيات باستخدام الورق المطلي باليود الفضي

المصادر والمراجع

- بدوي، الدكتور عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣
- الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣
- العقيقي، نجيب، المستشرقون، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٦٤
- العربي، فاروق، دور المستشرقين في صناعة المعجم العربي، كلية الأدب واللغات، البويرة، الطبعة الأولى ٢٠١٩
- كاس، أحمد، «إسهامات المستشرقين في التأليف المعجمي»، مجلة تاريخ العلوم، ج: ٢، عدد:٤، ١٥-٠٦-٢٠١٦
- فوربز، دنكان، قواعد اللغة العربية، دار النشر ل Wm.H.Allen ، لندن، ١٨٦٣
- الموقع: www.noor-book.com